تأسيس الوضعية البديلة ودواعي قيام الالمنهج الوضعي

لقد كانت الظواهر الاجتماعية موضع اهتمام الكثيرين منذ زمن طويل عند جميع المجتمعات، وقد كانت موضع اهتمام العديد من الدارسين والباحثين من أعلام الفكر الانساني. غير أنه رغم تلك المجهودات لم تكن سوى مراحل في تاريخ نشأة علم الاجتماع ولم يستطع علم الاجتماع أن يكون ندا للعلوم الطبيعية إلا في أواخر القرن 19 حيث استطاع أن يحدد الظواهر الخاصة به، ويحدد المنهج الذي يمكنه من دراستها بموضوعية واستقلالية تمكنه من الكشف عن أسباب الظواهر واستخراج القوانين المتحكمة في الظواهر. مما يمكن معه من اصلاح المجتمعات والتنبؤ بمستقبل الظواهر الاجتماعية.

لقد ولدت السوسيولوجيا من انقلاب، هذا الانقلاب هو في حقيقته، انتقال إلى مجتمع جديد حصل في ملتقى ثلاث ثورات الثورة السياسية (الثورة الفرنسية) والثورة الاقتصادية (التحول الصناعي الذي عرفته أوروبا) ثم الثورة الفكرية التي هي انتصار العقلانية والعلم والفلسفة الوضعية على التقاليد وعلى العقلية الساذجة، انقلاب على طريقة التفكير وطرق معالجة الظواهر وتفسيرها.

1. نجحت السوسيولوجيا في وضع تصورات لنظام جديد: يخص طبيعة المجتمع (كان في السابق متحكم فيه من طرف قوى خارجية)، ول قوانين عمله الخاصة به والتي يمكن الكشف عنها. مثال دوركايم الذي عمل على اكتشاف الاجتماعي من خلال تفسيره للانتحار (فعل شخصي لكن تتحكم فيه ما هو اجتماعي)
2. القرن 19 عرف بالثورة الصناعية التي صاحبها:

- التمدن أو التحضر أو ما يمكن أن نصطلح عليه تقسيم عمل جديد أو ظهور آليات تضامن جديدة (التضامن الآلي والتضامن العضوي) انطلاق الرأسمالية التجارية، والمكننة أي نحن أمام عمل جديد بمهارات جديدة وعقلية جديدة خلفت وحدات إنتاج واسعة، الانتقال من إقتصاد الكفاف إلى الاقتصاد التجاري والصناعي أدت إلى تشكل الطبقة العاملة.
- العمل- التضامن الاجتماعي الانتقال من الفلاح إلى العامل في المدن.

هذه الأمور مجتمعة وغيرها خلق خوفا من الأمراض الاجتماعية (العنف والانحراف والاضطرابات) كانت بشكل مباشر وراء الأبحاث الاجتماعية.

- السوسيولوجيا الأمريكية في أوائل القرن 20 ظهرت من الرغبة في فهم الهجرة والتمدن والتحضر.

3. الثورة الثقافية ظهور الفكر العلمي والعقلنة:

أعلن كونت ميلاد ووصول الوضعية أي قيام علم مؤسس على التفسير العلمي الخاضع لمعرفة الظواهر عن طريق التجربة. لقد إبتكر السوسيولوجيا وأراد أن يجعل منها ميدانا للملاحظة الأمبريقية الصارمة بخصوص الظواهر الاجتماعية.

ماهي دواعي قيام المنهج الوضعي؟

من الأشياء التي أصبحت تابثة في الفكر الغربي هي الصراع القائم بين العلم والدين حيث إعتقد بعض المفكرين أن هذه السمة طبعت علاقة العلم بالدين على الاطلاق وليست سمة خاصة بالفكر الغربي إذ لم ينقطع الصراع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب كما يقول "إميل بوكرو" لقد انتهت هذه اللازمة خلال القرن التاسع عشر ومع المتغيرات التي حصلت وأشرنا إليها قبل قليل أدو إلى إقصاء النسق الديني من مجال الحياة وحصره داخل جدران المعابد. وطرده من مجال النظر العقلي إلى مجال الاحساس والشعور. وانتهى كذلك إلى تخلص العلم من الرق والعبودية التي فرضها التفكير الديني الذي فرضته الكنيسة الكاثوليكية وبدافع من الرغبة في مقاومة نفوذها. لهذا قاد الفلاسفة بحملة على هذا الأسلوب تمخضت عن اقتناع الغرب بضرورة قيام المنهج الوضعي.

1- أسلوب التفكير اللاهوتي المنتهج من طرف الكنيسة:

كان تفكير الكنيسة يتجه اتجاها معاكسا للحقيقة والواقع، وبقي موغلا في ميتافيزيقية عقيمة. (تأليه المسيح). نسج الباباوات خرفات عديدة حول الفكر الديني. "سان سيمون" يقف في وجه البابا وكنيسته بهذه التهمة النافذة، (إنني أتهم البابا وكنيسته بممارسة البدع والهرطقات والتعليم الذي كان يعطيه رجل الدين الكاثوليكي للعلمانيين الذين يشاركونه في الرأي هو تعليم فاسد، فهو لا يوجه إطلاقا تصرفاتهم إلى طريق المسيحية واتهم رجال الدين بعدم اكتساب أية معلومات من شأنها أن تجعلهم قادرين على قيادة الأتباع المومنين في طريق خلاصهم. طبيعي جدا أن يناهض المفكرون الأحرار قرارات الكنيسة ويعلنون علمانيته ولا دينيته ويعملون على تقويضه.

- اضطهاد الكنيسة للأسلوب العلمي:

احتكرت الكنيسة مجال التفكير وحرمت كل تفكير يخالف التقاليد البابوية. وكان السائد أنذاك هو النزعة النصية وتحكيم الكتاب المقدس في مجالات الحيا، هذا التقديس وقف في وجه نمو العلم وفي طريق التجربة العلمية وقد بقي الحال هكذا طيلة فترة نفوذ الكنيسة، لقد استقر في ذهن الانسان الغربي وجود علاقة عكسية بين الدين والحضارة أي كلما سيطر الدين ماتت الحضارة وكلما تنحى الدين استردت الحضارة روحها.

- تدخل الكنيسة القسري في كل مجالات الحياة:

لقد حكمت الكنيسة في 500 إلى 1500 وطيلة تلك الفترة تتدخل قسريا في كل مناحى الحياة وجزئياتها وكانت الحقوق الأولية للإنسان الاجتماعية والثقافية والسياسية مشروطة بأن يكون كاثوليكيا وتابعا للكنيسة الرسمية وقابلا لكل أحكامها وتعاليمها.

- التحاف بين النظامين الاقطاعي واللاهوتي:

لقد كانت الكنيسة تفرض قوالبها الفكرية التي يتحتم على الناس أن يصوغوا ووفقها سلوكهم وأساليب تفكيرهم وكان النظام الاقطاعي يقدم التغطية الأمنية اللازمة لتنفيذ قرارات الكنيسة وقد خلف ذلك تدميرا كبيرا في نفوس الرعايا وارتبطت به كل معاني التهجين. وهو ماجعل الأحرار يفرضون لا بقاء على هذه الحال ولا يرضون إلا بتقويضه ككل.

- تأسيس الوضعية البديلة اللاهوتية.

<u>الإطار التاريخي لنشأة الوضعية:</u>

كل ما سبقت الإشارة إلية يعتبر مؤشرا على قيام نظام فكري جديد يحكم نفوذ الكنيسة وكل ما يدور في محيطها من معالم ونظم، حيث إن هناك بالمقابل تحولات هيئات الفكر الغربي ليصب أساليب تفكيره في قوالب الوضعية..

- منذ عصر النهضة والبحث جار عن أسلوب بديل وحاسم في التفكير يقوم مقام الكنيسة والفكر اللاهوتي القديم.
- منذ بداية القرن 18 قطعت أشواط كبيرة نحو التحرر لدرجة أن هذا القرن سمي عصر الأنوار التنويري والمقصود إبعاد الوحي عن التوجيه والإيمان بقدرة العقل الانساني على فهم ظواهر الكون واستيعابها وإخضاعه لحاجات الإنسان.

بدأ إنتقاد النظم السياسية والأخلاقية والدينية السائدة والعمل على استبدالها وفق ما تفرضه المعايير العقلية وحدها.

- مع نهاية القرن 18 كان ملامح العلمانية واضحة وهي السمة الغالبة على الاتجاهات الفلسفية إذ بدأت تبسط نفوذها على المرافق التي كانت تسيطر عليها الكنيسة من قبل، وبذلك مهدت لأكبر ثورة إجتماعية وتقافية في تاريخ الغرب وهي الثورة الفرنسية التي كانت أعظم سند لقيام المنهج الوضعي، الذي سيتجسد في فلسفة "أوجيست كانت" وهو الطابع الذي ميز القرن 19 ويقول "كانت" (لولاها لما أمكن أن توجد نظرية التقدم ولما أمكن تبعا لذلك أن يوجد العلم الاجتماع ولما أمكن بالتالي أن توجد الفلسفة الوضعية).

لقد خلفت الثورة الفرنسية أزمة كبيرة داخل المجتمع الفرنسي لا نقصد هنا الأزمة السياسية (الاستقرار) ولا المؤسسة الاجتماعية فحسب بل المهم هو التفكير وازدواجية المعايير في التعاطي مع القضايا الاجتماعية لأن الصراع لا يزال قائما لأنه لم يتم القضاء بشكل نهائي على الفكر الديني ولأن الفكر الجديد لم يتم تنظيمه بعد فطال أمد الصراع بين الفكر اللاهوتي وبين الفكر الواقعي.

إن الفترة ما بعد الثورة كانت مرحلة إعادة البناء الاجتماعي على مستوى المؤسسات وعلى مستوى التفكير، حيث اتجه المفكرون الى إنشاء نظم جديدة لتنظيم المجتمع.

<u>تأسيس المنهج الوضعي:</u>

كان "أوجيست كانت" يمثل فلسفة القرن 19 حيث ترك أثرا كبيرا بين المفكرين في مختلف المجالات " القصة الرواية الشعر" وامتد تأثيره خارج فرنسا، ورأى "ليفي بريل" إلى أن الروح الوضعية امتزجت بالتفكير العام في القرن 19 إلى درجة أنها أضحت طبيعية لا يمكن أن نلاحظها تقريبا.

- هذه الجهود لم تكن وليدة اللحظة بل هي ثمرة لجهود النهضة الأوروبية والنضال الذي قاده الأحرار، من أجل تقويض التحالف اللاهوتي والإقطاعي، وقد أصبحت الوضعية نظاما يهيمن على التصورات وعلى أساليب التفكير، يقوم على المحسوس ويقصى كل عناصر التفكير الميتافيزيقي.

1- بدأت الوضعية مع "سان سيمون" (1760/1825).

الفكر الوضعي كان على درجة من الوضوح بحيث هناك تقارب بينه وبين أوجيست كونت إذ لا نجد اختلافا في تحليل وأسلوب التفكير بينهما.

- وعمل كونت على توسيع دائرة الوضعية ليجعل منها نظرية متكاملة ذات بعد فلسفي تستوعب مجموع التراث الإنساني
في ماضيه وحاضره، وجعل منها منطلقا في التحليل، يمتد إلى كل أطراف العلوم الطبيعية منها والاجتماعية والإنسانية.
- لقد ساد التفكير الديني في المجتمعات ما قبل العلمية، أما وقد بلغ المجتمع مرحلة الوضعية فلا مبرر للاحتفاظ بالتجربة والبراهين الميتافيزيقية. قال "سان سيمون" (إن السلطة العلمية والوضعية هي نفس ما يجب أن يحل محل السلطة الروحية، ففي العصر الذي كانت فيه كل معارفنا الشخصية حدسية وميتافيزيقية بصفة أساسية، كان من الطبيعي أن تكون إدارة المجتمع فيما يخص شؤونه الروحية في يد السلطة اللاهوتية، مادام اللاهوتيون أنذاك هم الميتافيزيقيون الموسوعيون الوحيدين. وبالمقابل عندما تصبح كل أجزاء معارفنا قائمة على أساس الملاحظة فإن إدارة الشؤون الروحية يجب أن تستند إلى القدرة العلمية باعتبارها متفوقة على اللاهوتية والميتافيزيقية.

التحول من اللاهوت إلى الواقع أمر طبيعي وواقعي يتماشي والسير العام لتقدم العقل الانساني.

إن وظيفة هذا العلم لن تكون أبدا اضطهاد الفكر وإبعاده عن المشاكل الواقعية.

<u>ماهي الأسس المنهجية التي تقوم عليها الوضعية؟ وماهي انعكاستها على العلوم الإنسانية؟</u>

<u>1-</u> اعتبار الحس وحده مصدرا للمعرفة الاجتماعية.
<u>2-</u> اعتبار النموذج الطبيعي سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية.
<u>3-</u> إخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب.
<u>4-</u> تشيئ الظواهر الاجتماعية.

- <u></u> يقول دوركايم: إن العالم لا يستطيع أن ينهج منهجا آخر غير اعتبار الحس نقطة بدء لدراسة ...ولن يستطيع أن يتحرر من الأفكار الشائعة والألفاظ التي تعبر عن المعاني إلا إذا جعل الحس هو المادة الأولية التي لابد منها في نشأة

كل معنى كلي، وبهذا تنفي الوضعية كل مصدر معرفي خارج هذا الإطار وجعل الحس وحده المصدر الوحيد في بناء المنهج العلمي.

- يؤكد علماء الوضعية على وحدة المنهج العلمي بمعنى أن المنهج المستمد من الفيزياء هو نفسه صالح لدراسة الإنسان وظواهره، ذلك المنهج القائم على الملاحظة والتجربة يقول كونت:

إننا ما إن نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين.

فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير.

إن الغرض من هذا هو القطع مع الانفصام الذي كان يحكم العلماء من قبل الدين كانوا يعالجون الظواهر الطبيعية بالمنهج الوضعي والظواهر الانسانية بالمنهج اللاهوتي.

ومن جهة أخرى بغية التعرف على المجتمع باعتباره محكوم بقوانين وعلماء الاجتماع ملزمون للكشف عن هذه القوانين عن طريق الملاحظة الحرة دون استحسان أو استهجان للظواهر السياسية، وأن يرى فيها مجرد موضوع قابل للملاحظة...

على كل يمكن القول تأسيس كونت للفيزياء الاجتماعية تم استبدالها بعلم الاجتماع sociologie وبعدها تم شيوع هذا المصطلح في الثقافة الغربية ليصل إلى الثقافات الكونية الأخرى.

وقال "كونت" بشأن ذلك: لدينا الآن فيزياء سماوية وفيزياء أرضية ميكانيكية أو كيماوية، وفيزياء نباتية وفيزياء حيوانية وما زلنا في حاجة وما زلنا في حاجة إلى نوع آخر وأخير من الفيزياء وهو الفيزياء الاجتماعي. ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوع لدراسة باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيمائية نفسها. من حيث كونها موضوع للقوانين الثابتة؟؟

بالرغم من السبق في التسمية إلا أن كونت لم يعطي تعريفا لظواهر الاجتماعية لأنه يرى بان سوسيولوجيا تدرس كل الظواهر التي لم تدرسها العلوم السابقة. ويرى عبثا تعريف الظواهر الاجتماعية باعتبارها كل الظواهر الانسانية بما فيها ظواهر علم النفس كما اعتبر

الانسانية هي موضوع العلم ولذلك لم يحدد موضوع علم الاجتماع. اعتبر أن الانسانية هي حقيقة